إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما فعل « عبدالله بن سلام » رضى الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيته وعرفته كابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد. ونسى هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ؛ فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُب مجىء نبى منكم سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبى الذى توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَفَ نبأ مقدمه وبعثه وصورته ونعته كلُّ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذى ختمت به أخبار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكنّ بعضاً منهم فضل السلطة الزمنية على الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ؛ لأن الخسارة - كما نعرف - هى ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التى جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفى ذلك خيبة كبرى .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك : « لا إله إلا الله » هو سند لعرش الله . لا ، إنما سند لك أنت ؛ لأنه لا إله إلا هو خَلَق الكون والخَلْق بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة فى ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسبح لله .

وحين يقول الحق :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الأنعام)

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التى صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشر بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم بجوارهم لأهل كتاب فى المدينة يعلمون هذه الحقيقة التى جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذى أخذه الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم فى الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غِنىً ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قاهرية الله قهراً ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة ؛ لأن لكل صفة مجالها الذى تعمل فيه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم ينفعلون للمواقف المختلفة ؛ فالموقف الذى يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذى يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق فى المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلاً منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففى الموقف الذى يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفى الموقف الذى يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خَلْقه أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه : « حُسْن الخلق خُلُق الله الأعظم »[1] ورُوِى : (تخلقوا بأخلاق الله) .

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء، والله جبار فإذا تطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلا بهذا .

وما دام الحق قد أراد من الخلق أن يعمروا هذا الكون فلا بد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على « افعل » ولا « تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه بالعرف الحاضر : «قانون الصيانة» فلنفعل ما قال الله افعلوا ،

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

ولنترك ما قال الله فى شأنه لا تفعلوا حتى تؤدى الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون .

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق « افعل » إلى نطاق « لا تفعل » ، والأعمال التى يجعلها الله فى نطاق « لا تفعل » تجعلها أنت فى نطاق « افعل » . فإن طلب الله أن نقيم الصلاة بـ « افعل » فكيف نجعلها فى نطاق « لا تفعل » بعدم الصلاة ؟ ، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن ؟ .

إن الخلل الإيمانى الذى يحدث فى الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى « لا تفعل » ، ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « افعل » ، أما ما لم يَرِد فيه « افعل » و« لا تفعل » فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشىء منها .

وإذا نظرت إلى منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذى لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه . وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالى . لماذا ؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان ؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشىء الذى يحد حركته ويتكرر التناسى إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمةَ محمد أن تكون هى المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبى الخاتم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبى أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذى توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبى على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، وبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبى الخاتم موجودة فى كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطى إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب ، وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد انتابت الآفة التى تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أخذوا ، وهم المبلغون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الحظ والجاه والنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم فى الدماء ، وكذلك يأخذون الصدقات . وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هى ذى دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

إذن فالآفة هى أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعى أنها سلطة الله . وعندما ننظر إلى التاريخ الديانى فى العالم نجد أن السلطة الزمنية فى الأديان التى

سبقت الإسلام هي التي أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل في خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هي التي تجعله يهتدي إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التي تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية ، وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة في الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هي مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل العالم الذكي إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير فطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً في الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود في الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء في دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المباني تدفيء حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمي أو البدوي في الصحراء من نور الشمس . وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التي يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمي لا يعرف كيف تدور المصانع التي تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التي يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأي بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث في مجال ما ولكنه اكتشف سرا غير الذي كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق في آية الكرسي :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ، وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التى تسير عليها البواخر والغواصات، إلى قانون الجاذبية الأرضية الذى اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة، إلى اكتشاف البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون . وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضاً علوم ليس لها مقدمات ؛ إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ (سورة الجن)

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبَلِّغ ما أوحىَ به إليه . وحين يريد الحق أمراً محكماً لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم بـ « افعل » و « لا تفعل ». وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتى بإذن من الله حتى لا تتعارض أهواؤنا ؛ فسبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر .

إن النشاطات الذهنية التى يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هى أسرار بنت التجربة والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المادة تستنبط فى المعمل . . ولذلك نرى الدول تتسابق كلٌّ يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما فى مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادئ ؛ فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر فى البحث العلمى؛ فقوانين البحث العلمى عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره .

ويعلمنا الحق أن نبحث في كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾

(سورة يوسف)

فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان ؛ لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية في خدمة البشرية كلها وكذلك الذي اخترع العجلة أفاد البشرية في نقل عشرات الأوزان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله في الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث في آيات الكون مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث في أسراره . وهذه هي قضية العلم . أما قضية الدِّين فأمرها مختلف ؛ لأن الخبر في قضية الدين يأتي من الله بواسطة رسول . أما البحث في الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾

(سورة فاطر)

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوى . ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون في اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله

الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسل مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله ؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون: إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير .

إن ما حدث في القرون الوسطى ـ على سبيل المثال ـ كان خلطاً بين البحث العلمى وما ينزل الحق من منهج ؛ فعندما جاء عالم مثل «جاليليو» ليبحث فى طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم فى طبيعة الأرض حبسوا حريته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربى بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش فى عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمى من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمى الذى طرحه الإسلام وأثبته علماء المسلمين .

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمقتون الحياة والتقدم الحضارى ـ حماية لنفوذهم وسلطتهم الزمنية والروحية ـ وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجريرة رجال الكهنوت عندهم . ونسى الذين حملوا على الدين ـ كل الدين ـ أن رجال الكهنوت افتأتوا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التى كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

ولهؤلاء نقول: إن الدين لا يتدخل فى أى أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم التجريبى وأمور الدين، وأراد أن يحمى دينه من تدخل أى فئة تدعى أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه .

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر تلقيح النخيل . ونعرف

أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسر فى إنتاج النخيل لثمارغير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التى تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوى للنخيل هو الذى يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيصاً أى ثماراً غير مكتملة النضج ، واستند الرسول فى ذلك إلى قول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره فى السحاب الذى يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده فى معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة فى النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف . واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج فى بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل فى العام الذى لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم . . قال صلى الله عليه وسلم لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »(١) .

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا فى أى أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة المعملية . ولذلك يقال عن الإسلام : إنه دين العلم ، لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا فى تأمل آيات الله فى هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون . أما فى أمور السلوك البشرى وحركة المجتمع فقد أنزل الحق من المنهج ما يكفى لعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنسانى بتعاليم المنهج الإيمانى .

لقد جاء المنهج الإيمانى فى كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هى رسالة محمد ابن عبدالله ، وكانت البشارة به موجودة فى التوراة والإنجيل . ويقول الحق :

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة رضى الله عنهما .

« الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ؛ ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أبي الذى كان رأس النفاق فى الإسلام والذى كان يستعد لتولى مُلْك المدينة قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضى الله عنه . ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التى كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت فى وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث فى أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت فى الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقننوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت فى الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ؛ لقد قال فيهم الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . لقد خسروا أنفسهم ؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفقة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن

الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكنَّ بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك: نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل فى الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم ينزله، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لأنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم وكذبوا الكذب المتعمد فى كلية ملزمة وهى الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسل .

والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو أعظم الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله : أين الذين عبدتموهم وأشركتموهم معى ؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان فى الدنيا محصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التى أشركها الكافرون فى العبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذى يصليه الله لهم ؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أن الفتنة هى الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشىء لتعرف الردىء من الجيد ، والحقيقى من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة فى ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التى نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التى نضعها لأبنائنا هى فتنة ، ومن ينجح فى هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هى التى يفرح بها الإنسان أو التى يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحيانا تطلق الفتنة على الشىء الذى يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التى أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله ربنا ما كنا مشركين) . وهمْ فى ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، وفى باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهى أن المُلْك كله لله ، ففى اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان فى اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار فى الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذى يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار فى اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله فى الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار فى الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ماعدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله فى الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله فى اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليم بخفايا الصدور وما كان من السلوك فى الحياة الدنيا ، ويوضح لهم فى الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ ففى هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار من المسئول . وفى حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ، لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له

لقد أشركوا بالله فى الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء فى

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول فى حق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يقعون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون فى الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب فى الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذى لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هى فتنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماضٍ أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)